فخــر على
غير قياس فى الشعر الجاهلى

إعداد
د/ عمر عبد المعبود عبد الرحمن
أستــاذ الأدب والنقد المساعـد
كلية اللغة العربية بأسيوط

فخر على
غير قياس فى الشعر الجاهلى

حمل إلينا الشعر العربى منذ العصر الجاهلى أغراضا متعددة للشعر ، منها الفخر وهو من أخص صفات العرب ، ومن أوسع الأبواب فى شعرهم ، والفخر بالقبيلة ، وبالأحساب والأنساب سمة لازمة العرب منذ القدم ، وكانت مبعث فخرهم وزهوهم على مر العصور .

ومقومات الفخر فى الجاهلية كانت (شرف الأصل وكثرة العدد والشجاعة والكرم وما يتفرع منها ، ويزيد الفخر بالنفس على الفخر بالقبيلة (السيادة) وذلك أن يكون المفتخر بقومه قد أصبح سيدا فى قومه، وفى سن باكرة على الأخص، وكان البدوى خاصة يفتخر بالنجدة وبشرب الخمر وإسقائها)[١].

وبالملاحظة والمراجعة الدقيقة لذلك الفخر نرى أنه جرى على نمط يكاد يكون مكررا حول صفات حرص الفاخر على أن يلصقها بقبيلته أو بنفسه ، وقد اتجه فكرى إلى ذلك الفخر فوجدت فيه عند بعض الشعراء صفات لم تكن زائعة أو جارية على نسق ونظام الفخر التقليدى ، فكان هذا العنوان (فخر على غير قياس فى الشعر الجاهلى) وأعنى به الفخر غير التقليدى وغير المألوف الذى ازدحم به الشعر الجاهلى ، فقصدت

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، د/ عمر فروخ ٨٣/١ ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨١م.

إلى صفات نادرة لم يطرقها الشعر بكثرة ، وإنما مسها مساً رقيقاً في ثنايا قصائده فالتقطتها لأصنع منها هذا البحث كي أروج لهذه الصفات المختفية وأجعلها تطفو على السطح .

هذا أمر ، والأمر الآخر أني لمست فيها صدق صاحبها ، وصدق ما يقوله عنها ، ولأنها مع ندرتها موجودة فيه وهو يزهو بها ؛ ويتمسك بأنها عنصر مهم في تكوينه النفسي والشخصي .

ومن هنا نقبت وفرزت الأشعار بدقة لأحصل على أبيات حملت معها صفة صاحبها التي لا يعرفها سواه ، بخلاف الفخر الذي كان يقلد الشعراء بعضهم بعضاً فيه ، ففيه شك من ناحية التقليد ، فكأن الشاعر يجاري التيار العام فقال . وجاء قوله إما باقتناع منه أو على غير اقتناع، ولكن الأبيات التي انتخبناها والتي عبر فيها الفاخر عن صفات مركوزة فيه دخلت في نسيج طبعه ولا يعرفها غيره ، فهذا هو الذي دفعني إلى كتابة هذا البحث لندرة الصفة وصدق القائل . فوجدنا الفاخر يعتمد في فخره على ذكر صفات تعد نادرة في حينها ، ولم يكثر شعراء الفخر من القول فيها ، بل وأحيانا نجدها على غير النسق الذي اعتاده الشعراء عند سرد الصفات التي يفتخرون بها .

والواقع أننا عثرنا على صفات افتخر بها بعض الشعراء في العصر الجاهلي تضارع عراقة الأحساب والأنساب إن لم تبذها في كثير من الأحيان ، هذه الصفات تتمثل في تحلي الفاخر بمكارم الأخلاق وحميد الفعال والخصال والفصاحة والبلاغة وغير ذلك مما هو غير زائع ولا مشهور في الفخر التقليدي.

ولا شك أن مثل هذه الصفات الفردية يفعلها المرء باختياره لا يكتسبها من آبائه وأجداده كما يكتسب منهم عراقة النسب ، فقد يكون المرء شريفا فى نسبه لكن صفاته الخلقية ذميمة فتلحقه المذلة ويركبه اللوم والعار ، وقد لا ينتمى المرء إلى قبيلة زائعة الصيت ، كثيرة العدد، أو إلى أب شريف النسب ، لكن أفعاله وخصاله الكريمة هى التى ترفع قدره وتعلى شأنه ، وتجعله يترفع عن الدنايا والنقائص ، ومن ثم يحظى بالمدح والثناء لا الذم والإزدراء .

ومن هنا نرى أن كرم العنصر شئ يرثه المرء لا حيلة له فيه ، إذ أنه لم يسع له ولم يتعمل ، بخلاف أفعاله التى تعكس خلقه وتنبئ عن نفسه فهذه يأتيها الإنسان اختيارا حسب ما رضى وانتهج ، وهذا ما يؤكده قول قس بن ساعدة : " من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه"[١] ، وقول ابن عبد ربه : " إن أولى الأمور بالإنسان فضال نفسه، فإن كان كريما وآباؤه لئام لم يضره ذلك ، وإن كان لئيما وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك"[٢].

وها هو ذا عامر بن الطفيل يقول :

إنى وإن كنتُ ابنَ فارسِ عامرٍ ... وفى السرِّ منها والصريح المهذبِ
فما سودتنى عامرٌ عن وراثةٍ ... أبى اللهُ أن أسمو بأمٍّ ولا أبِ

---

(١) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ٢/٢٩١ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

(٢) العقد الفريد ، ٢/٢٩٠.

ولكننـــى أحمِـــى حِماهـــا وأتقـــى أذاها وأرمى مـــن رماهـــا بمنِكب[١]

فهو يعلن صراحة أنه لم يعتمد فى سيادته للقبيلة على إرث أخذه عن أبيه أو جده وأى شرف هذا الذى يستوى فيه مع من هم من نسل أبيـه بلا تفرقة ولا تميز ، وإنما هو ساد القبيلة بشمائله وتفرده وبصفات فيه جعلت الناس ينظرون إليه بإكبار وإعزاز فاختاروه سيدا لهم ، وهو لـم يفصل نفسه عن أهله وعن أجداده وإنما واصـل مسـيرتهم ، ونـهج نهجهم، وزاد عليها ، فأصبحت الصفة أصيلة فيه . لذلك قدمـه قومـه واختاروه سيدا لهم ، وهذا يجعل السيادة فيه مستمرة طالما على قيـد الحياة ، فصفاته التى تعامل بها مع قومه لم تكن وراثيـة قـد يبددهـا ويتخلى عنها عندما تكون على غير حقيقة فيه ، أما أنها نابعة من ذاتـه فإنها ستظل كذلك إلى آخر عمره ، ومن ثم يكون فى نظر قومه جديـرا بالسيادة والتفرد .

ولما كانت هذه الصفات أصيلة فيه فقد تحمس لقبيلته وسـعى إلـى رفعتها وعزها فأفادها كثيرا فى حياتها ، والمعروف أن الإنسان الجاهلى لا يستطيع الحياة إذا رفعت قبيلته يدها عنه ، لذلك كان الفرد فى القبيلـة يحرص على طاعتها والإذعان لمشيئتها لكى تحتضنه فى عباءتها فـلا يتعرض لأذى من أحد،ولكن الشاعر هنا يفتخر بحمايته للقبيلة فيكـون بذلـك قـد أفادهـا بـأكثر ممـا أفادتـه لأن خصالـه تحميـه أكـثر

---

[١] الكامل للمبرد ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ ، والشعر والشعراء لابـن قتيبـة ٣٤٣/١ ط١٩٧٧/٣ وتاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ٢٢٠/١.

من حماية القبيلة له.

وفى المعنى نفسه يقول عبد الله بن معاوية :

لسنا وإن كَرُمَتْ أوائلنا يوماً على الأحسابِ نتكل
نبنى كما كانت أوائِلنا تبنى ونفعلُ مثلما فعلوا[1]

فهو فى البيتين يشير إشارة خفيفة إلى كرم محتده ، وعراقة أصله إلا أنه لم يتوقف عنده بل تعداه إلى نفسه ، وهذا هو أصدق وأصح الفخر ، لأنه صنع من نفسه إنسانا يقدم أمجادا تتساوى إن لم تفق مع قبيلته القديمة ، وهذا ما نعبر عنه بتواصل الأجيال ، والذى نتمنى أن يحل فينا فينهض الشباب ويصنعوا مثل ما كان يصنعه آباؤهم فى الماضى ، إن حرصنا على ذلك ستعود إلينا أمجادنا جديدة قوية ، وما طمع فينا العدو .

وهكذا عزا بعض الشعراء كرم الخلال وطيب الشمائل التى يتمتعون بها إلى شيم مركوزة فى نفوسهم لم يكتسبوها من الآباء والأجداد ولا من القبيلة أو العشيرة .

وبعد : فما هذه الصفات التى تغنى بها بعض الشعراء فى العصر الجاهلى وامتدحوا بها أنفسهم ، ورأينا فيها التفرد وعدم الشيوع أو الزيوع ، ومن ثم جاءت على غير قياس مألوف ؟

---

(1) العقد الفريد ٢/ ٢٩٠.

يطالعنا فى البداية قول الشنفـــرى[١] :

وفى الأرض منأى للكريـم عن الأذى وفيها لمن خـاف القِلـى مُتعـزَّلُ
لعمرك ما فى الأرض ضيق علىامرئٍ سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقـــلُ[٢]

فهو يعلن فى بيتيه أنه هجر قومه واعتمد على نفســـه ، لأن الأرض واسعة لا تضيق به ولا بغيره من الأحرار ، وهو يفاخر بذلك فى عـــزة وكبرياء لأن نفسه الأبية لا تقبل الضيم وخيانة الخلان ، لذا فسوف يجد بعيدا عن قومه الأمن والطمأنينة والحياة الحرة معتمدا على نفسه .

وربما تكون هذه الصفات موجودة عند الصعاليك بصفة عامـــة ، لأن الصعلوك شاعر متمرد ، لم يرد أن يذيب ذاته وخصائصه المميزة داخـل قبيلة تفرض عليه سلطانها ولا يستطيع التحرك إلا فـــى ظلالـــها ومـــن خلالها ، وهو لا يريد أن يكون إنسانا عاديا غير مميز عن غيره ، ولذلك هجر قومه وعاش لنفسه وبنفسه ، وهو يفخر بذلك مع قبيلــــة أخـــرى مكونة من الوحوش والثعابين وكل الهوام الموجودة فى الجبال ، وهـــو سعيد بذلك آمن بينهم على الرغم من أنهم مصدر شرور لا يمكن تجنبهم إلا بالحذر الشديد ، ويبدو أنه صادقهم وكسر فيهم حدة الـــهجوم التـــى

---

(١) الشنفرى يمنى الأصل من بنى أواس من الأزد ، وهو شاعر صعلوك أكثر شعره فى الحماسـة والفخر ، وله القصيدة التى تسمى لامية العرب ، وهى تصور حياة الصعلوك تصويـرا دقيقـا بارعا .

راجع تاريخ الأدب ، د/ عمر فروخ ، ١٠٢/١.

(٢) تاريخ الأدب العربى د/ عمر فروخ ١٠٣/١.

تصاحبهم فى حياتهم ولكنه خفف من حدتهم بل وحولهم إلى أصدقاء يأنس بهم ويطمئن بوجودهم حوله ، وكأنه يرسل رسالة إلى أهله وغير أهله يخوفهم فيها من الاقتراب منه ، فهو ممنع ومحصن بجنود لا قبل لهم بها .

يقول :

ولى دونكم أهلونَ : سيدٌ عملّسٌ وأرقطُ زُهْلولٌ وعرفاءُ جيألُ
هـمُ الأهلُ لا مستودع السرِّ ذائعٌ لديهم ولا الجانى بما جرَّ يُخذلُ[1]

فالشاعر تنصل من أهله واستبدلهم بقوم آخرين هم سباع الصحراء ، وهؤلاء من خصائصهم أنهم لا يزيعون السر بل ويحمون الجانى ويدافعون عنه ولا يخذلونه ، وهو فى كل ذلك يدافع عن كرامته ويحاول إثبات ذاته بعيدا عن قومه وآله .

ثم يفاخر – أيضا – ببعض شيمه وصفاته فيقول :

وإن مُدَّتْ الأيدى إلى الزاد لم أكن بأعجلهمْ إذا أجشعُ القومِ أعجلُ
وما ذاكَ إلا بسطةٌ عن تفضلٍ عليهم وكان الأفضلُ المتفضِّلُ[2]

فهو يقول : لقد تعلمت بين هذه الهوام ألا أمد يدى إلى الزاد قبلهم ، وقد علل ذلك بأن المتعجل فى الأكل يوصف بصفات خسيسة ، منها الجشع ، وأرى فى الحقيقة أن هذا ليس تعليلا لما يفعله وسط الوحوش، لأن الحقيقة أنه ليس فى مقدوره أن يزاحمهم الطعام وإلا أصبح هو

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) تاريخ الأدب العربى د/ عمر فروخ ١٠٤/١.

نفسه طعام جديدا لها ، ولكن لا بأس من أن يعلل بهذه العلة المغلوطة فهو فى مجال الفخر بنفسه وبفرديته بعيدا عن القبيلة حتى لا تحسب شجاعته على القبيلة التى يتحصن بها غيره إنما هى شجاعة ذاتية كامنة فيه . فهو رجل شجاع لا يهاب شيئا حتى الوحوش التى حوله وتباطؤه فى الأكل عن خلق حسن فيه وليس خوفا منهم .

ففخره منصب على الاعتماد على النفس فى تحقيق المجد والكرامة ، إلى جانب بعض الصفات الفردية الطيبة التى أشرنا إليها .

ومما افتخر به الشنفرى ــ أيضا ــ وجاء على غير قياس ، قوله :

ولستَ بمهيافٍ يُعشِّى سَوامَه ... مُجَدَّعَةً سُقبانُها وهى بُهَّلُ[(١)]

ولا جُبَّأٍ أكْهى مُرِبٍّ بعِرْسِه ... يُطالِعها فى شأنه كيفَ يفعلُ[(٢)]

ولا خالفٍ دارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ ... يروح ويغدو داهناً يَتَكَحَّلُ

أديمُ مِطالَ الجوع حتى أميتَه ... وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فأُذهلُ

وأستَفُّ تُرْبَ الأرض كيلا يَرى له ... علىَّ من الطَّوْلِ امرؤٌ مُتَطَوِّلُ

ولولا اجتنابُ الذامِ لم يُلْفَ مشربٌ ... يُعاش به إلاّ لَدَىَّ ومأكَلُ[(٣)]

فالشاعر فى هذه الأبيات يفخر بصفات فردية يتمتع بها ولا يقدر عليها غيره ، فهو بصفة عامة يقدم نفسه على أنه شديد الجلد ، قوى الصبر على نفسه حتى أنه يوردها الموارد التى يأتيه منها العطب ومع

---

(١) سوامه : إبله ، السقبان : ولد الناقة .

(٢) جبأ : جبان ، أكهى : أبخر .

(٣) تاريخ الأدب العربي د/ عمر فروخ ١/ ١٠٤.

ذلك لا يخشاها.

ففى البيت الأول يفخر الشاعر بأنه لا يبتعد بإبله عن طلب المرعى على غير علم فيعطشها ، فهو خبير بأماكن الماء والعشب ، ولذلك فهو يذهب بإبله إلى الأماكن البعيدة على علم منه ولا يخشى العطش .

وفى البيت الثانى يفخر بأنه لا يعرف الخوف فهو ليس بجبان ، وليس ـ أيضا ملازما لعرسه يستقى منها الأخبار أو يأخذ منها المشورة، على الرغم من خلوه من العيوب التى قد تنفر المرأة منه ، مثل البخر ، وهو الرائحة الكريهة التى تبعث من الفم وتنفر الزوجة من معاشرة زوجها ، فهو يفخر بأنه لا توجد فيه هذه الصفة حتى تنفر منه زوجته ولكنه هو الذى يبتعد عن ملاصقتها ويفر من جوارها ، لأنه حر متمرد على كل سلطة ولو كانت من امرأته ، ولذلك فهو يرفض منها حتى النصيحة أو المشورة .

فهو إذن يعيش الحياة مصغيا إلى الأصوات المنبعثة عن فكرد ، المستكنة فى داخله الموجهة له فى كل حركاته وهو بذلك يعلن عشقه للحرية ، ولا يسمح لأحد فى أن يتدخل فى حياته ، ومن أجل ذلك يتحمل قسوة الحياة التى تلم به ، وقسوة الجوع والعطش فى سبيل أنه لا يزعن لأحد .

وفى البيت الثالث أعلن أنه من أجل أن يعيش حياة خشنة امتنع عن التطيب، وعن استعمال العطر والروائح الجميلة ، أو مغازلة النساء ؛ لأن هذه كلها لو ركن إليها لأورثته الخور والضعف والاستكان للدنيا

يسعى وراء مطايبها ولذائذها ، وربما ينال منه الذل إذا طلب هذه الأشياء عند الآخرين ، فهو يكون محتاجا وعاجزا عن أن يصل إلى مراده إلا بالإمدادات التى يمده بها غيره . لذلك استغنى عن كل هذه الأمور ليكون مالكا لنفسه ويحطم من حوله قيود الحاجة .

وفى البيت الرابع يوضح هذه الصورة التى رسمها لنفسه أكبر توضيح فهو يعلل الجوع إذا بدأ يتحرك فى داخله ويماطله ويمنيه بأمانى لا تتحقق حتى يستكين قليلا الجوع أملا فيما وعده به ثم يتركه لينساه ، وبذلك يتخلص من الجوع كنوع من التضليل والأمنيات التى لن تتحقق .

إنه يصبر على نفسه تأمينا لحريته وكبريائه حتى لا يقع تحت طائلة الحاجة التى يسد بها رمقه ، فهو وازن بين الحياة متخما مع فقدان العزة والكرامة ، والحياة محتاجا مع الكرامة والعزة فاختار الثانية .

وفى البيت الخامس يفخر ويزهو بقسوته على نفسه وإرغامها على الصبر والتجمل ، فهو فى البيت الذى قبله علل الجوع وخدعه حتى سكن، ولكن هذا السكون لا يلبث أن يتمرد ، وينهش الجوع فيه مرة أخرى فلا يرى أمامه إلا أن يستف التراب يسد به جوعته ، فهذا أفضل من أن يمد يده إلى غيره ، حتى لا يمكنه من السيطرة عليه ، ولا يجعله فى كل لحظة يعايره بما فعل . تلك قسوة ولكنها فى سبيل العزة والكرامة ومن ثم تهون كل المحن . وليت الناس يتدبرون على مخالفة ـ ليس الجوع فقط بل كل الإحتياجات حتى يحرروا أنفسهم من ربقة الذل والهوان .

وأعتقد أن الشاعر اختار أقسى المواقف وهو الجوع ، فالذى يصبر على الجوع يستطيع أن يصبر على كل شئ غيره ، وربما يلغيه من حياته حتى تتاح له الأموال التى يأتى فيها بكل ما يشاء .

وفى البيت السادس يعلن أنه لولا خشيته من الذل والتعيير لكان وفر لنفسه ما تحتاجه من المطاعم والمشارب ، وكأنه يومئ إلى الطرق الأخرى التى يرفضها الحر فى تحصيل المال ، ومن ثم فهو يمكنه من الطرق المعوجة أن يوفر كل شئ ولو بمد يده ولكنه يرفض ذلك البتة حفاظا على عزته وإبائه وكرامته .

والشاعر فى هذه الأبيات جميعها يعلن فى إصرار عن تشبثه بالعزة والكرامة ، وأنه على استعداد للصبر المرير على الجوع والعطش إلى أن تتحول ظروفه إلى الأحسن حتى لا يقع تحت بطش الذل والسخرية والمهانة . وهذه صفة إنسانية رائعة ليتها تشيع وتنتشر .

أما حاتم الطائى[١] فقد شهر عنه الفخر بالكرم ، والفخر بالكرم شاع على ألسنة كثير من الشعراء غيره ، لذا لن نعرض لهذه الصفة فى حاتم، ولكن سنعرض لصفات أخرى افتخر بها فى وقت قل أن يتصف بها أناس كثيرون خاصة فى العصر الجاهلى .

---

[١] هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى ولد حوالى عام ٥٥٤ م وتوفى حوالى عام ٦٠٥م ؛ أى حوالى عام ١٥ ق.هـ راجع ترجمته فى : ديوان شعر حاتم الطائى تحقيق د/ عادل سليمان ص ٩ وما بعدها ط٢/١٩٩٠ ــ الخانجى .

يقول :

إذا مـا بـتُّ أشـربُ فـوقَ رىٍ ... لسكرٍ فـى الشـراب فـلا رويتُ
إذا مـا بـتُّ أختـلُ عـرس جـارى ... ليخفينـى الظـلامُ فـلا خفيـتُ
أأفضح جارتى وأخـون جـارى؟ ... معـاذ اللهِ أفعـلُ ما حييتُ(١)

إنه يفاخر بخلق الأبى الذى لا يترك العنان لأهوائه ، ولا يشرب فوق رى رغبة فى سكر ، ويأبى بل ويستنكر أن يهجم على زوجة جاره ، ولا يراعى للجوار حرمة ، لذا فهو يستنكر فى استفهام : أأفضح جـارتى ؟ فهو يرى فى هذا الفعل جناية كبرى لأنه خذل جاره الذى اعتمد عليه فى حراسة بيته وأهله ، وهو لا يتصور أن يحدث ذلك منه أبدا ، وتلك صفة تجعله عفيفا لا يهجم على الأعراض ولا يهتك فيها أستار بيت جاره .

وإذا كان هذا هو موقفه مع الجيران ، فإن مواقفه مع الأصدقـاء لا تقل عن ذلك .

يقول :

رب بيضـاء فرعـها يتثنـى ... قـد دعتنـى لوصلـها فـأبيتُ
لـم يكـن بـى تحـرجٌ غير أنـى ... كنـتُ خدناً لزوجهـا فاستحيتُ(٢)

فهو فى هذين البيتين أتيحت له فرصة مضاجعة هذه الجميلة البيضاء التى تصدت له ودعته لنفسها ومهدت له السبيل ، لكننا نراه ينصـرف عنها ويأبى أن يستجيب لعرضها ، بل يستحى أن يدير الأمـر بفكـره ،

---

(١) المصدر نفسه ص : ٢١٠ ، ٢١١.

(٢) ديوان شعر حاتم ٢٤٣

أليس صديقا لزوجها ، أيخون صديقه ؟ كلا.

وهكذا يفاخر حاتم بوفائه لأصدقائه ، وبعفته ، فهذه البيضاء زوجها صديق له وخليل ، وهو لا يستطيع خيانة هذه العلاقة السامية النبيلة ، ولابد أن يكون حارسا لا خائنا ومخادعا . وهذا ما منعه من أن يقتنص فرصة عرض المرأة عليه أن ينال منها ما يشاء ، وهو لا يمنعه شئ سوى الصداقة .

وهذا أيضا فى مجال العفة بلغ شأوا بعيدا ليس موجودا فى العصر الجاهلى، أو وجد على قلة وندرة ، فشعراء الجاهلية كثيرا ما تحدثوا عن النساء والتمتع بهن ، وتباهوا بمباشرتهن ، وعدهن (طرفة) إحدى ثلاث لذات هن من عيشة الفتى . ومنهم من أسرف وبالغ فى الحديث عن المرأة والنيل منها ، كما فعل الأعشى وامرئ القيس ، لكن حاتما عف عن كل ما يشين متخطيا بذلك قيم العصر الجاهلى وعاداته المنتشرة بين أبنائه .

ومن صور وفائه للصديق ـ أيضا ـ قوله :

الله يعلمُ أنى ذو محافظةٍ ... ما لم يخنى خليلى يبتغى بدلاً
فإن تبدل ألفانى أخا ثقةٍ ... عف الخليقة لا بكساً ولا وكلا[1]

فهو لا يجف صديقه ولا يقاطعه حتى إن جافاه ذلك الصديق ، فهو يحافظ على ذلك الصديق ولا يناله بشئ يؤذيه ، مع أن الصديق الغادر قد

---

[1] ديوان شعر حاتم ، ص١٩٤.

أعطاه مبررا ليعاديه ، وهو إن فعل لا يلومنه أحد ؛ لأنه يرد خيانة بدرت من صديق ، ولم يكن هو البادئ فيها ومع ذلك لم يفعل .

أليس ذلك فخرا فرديا يدل على قيم مثلى راسخة فى طبعه يأتيها اختيارا لا اكتسابا ولم تكن شائعة بكثرة فى مجتمعه .

ومن الفخر الذى جاء على غير قياس ـ أيضا ما نجده عند تأبط شرا[١] ، حيث يفتخر بنفسه فيقول :

لا شئَ أسرعُ منى : ليس ذا عُذَرٍ ... أو ذا جناحَ بجنب الرَّيْدِ خفاقِ
ولا أقولُ إذا ما خُلةٌ صرمت ... يا ويح نفسىَ من شوقٍ وإشفاقِ
سباقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرته ... مُرَجِّعُ الصوتِ هدّاً بين أرفاقِ
إن يسألِ القومُ عنى أهلَ معرفةٍ ... فلا يُخَبِّرْهُمْ عن ثابت لاقِ
سَدِّدْ خلالك من مالٍ تُجَمِّعُهُ ... حتى تلاقى الذى كلَّ امرئٍ لاقِ[٢]

سبق أن نوهنا على أن الشعراء الصعاليك لهم سمت خاص وحياة لا يشركون فيها غيرهم ، فهم ثاروا على تقاليد القبيلة وقيودها طلبا للحرية المطلقة بحيث لا يتحملون وزر غيرهم ولا يحملون القبيلة فلتات أفعالهم، فالصعلوك إنسان قائم بذاته لا يعتمد على أحد إلا على قدراته الخاصة

---

[١] هو ثابت بن جابر الفهمى ، من قيس ، وهو من الشعراء الصعاليك ، وشعره فى الحماسة والتصعلك وهو ابن اخت الشنفرى . قتل نحو عام ٩٢ ق.هـ راجع ترجمته فى شرح المفضليات للتبريزى ٣/١، وما بعدها ط دار نهضة مصر تحقيق أ/ على محمد البجاوى ، وتاريخ الأدب العربى د/ عمر فروخ ١٠٧/١ ، ١٠٨.

[٢] شرح المفضليات للتبريزى ٢٣/١ وما بعدها ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٨/١ ، ٣١٩.

لأنه نبذ القبيلة ، والقبيلة ــ أيضا ــ نبذته ، فلا ترابط بينهم ولا يحمل أحدهم تبعة الآخر ، لأنهم ينشدون الحرية المطلقة التى لا يحاسبون عليها ، ولا يسمحون لأحدهم أن يتدخل فى شئونهم كان ما كان ، لذلك اعتمد كل فرد فيهم على خاصية امتاز بها عن غيره .

وهنا اعتمد تأبط شرا على ما حباه الله به من نشاط وقوة وسرعة جرى كما نرى فى البيت الاول حيث يفخر بسرعة جريه ، ولا يدانيه فى ذلك أحد حتى الطيور التى تخفق أجنحتها فى السماء ، ولا الحيوانات التى اشتهرت بالجرى تستطيع أن تحاكى جريه أو تقاربه .

وفى البيت الثانى يظهر تجلده وصبره على مفارقة الأحباب فهو يقتل الأشواق فى داخله ولا يجعلها تعوقه عن ممارسة حياته ، وهو لا يؤنب نفسه ولا يغرقها فى الأشواق إذا انفصلت عنه معشوقته ، فحياته الخاصة تمنعه من أن يتعلق قلبه بامرأة مهما كان جمالها ، لأنه إن فعل سوف تضعه فى الأسر وتكبله بقيودها ، وهو لا يستطيع ذلك لأنه فى الأساس فر من سيطرة القبيلة ، فكيف للذى ينشد الحرية أن يقع فى حبائل امرأة . فهو هنا يعبر عن حريته التى لا يستطيع أن يتنازل عن جزء منها ولو كان لمعشوقته .

فالحرية حياته ولا يستطيع أن يفارقها إلا إذا فارق الحياة نفسها .

وفى البيت الثالث يفتخر بأنه حينما منحه الله فضيلة الجرى وأعطاه السرعة الفائقة استخدمها فى تحصيل الأمجاد لنفسه ، حيث إن الأمجاد التى يحققها وهو داخل فى أفراد القبيلة تنسب إليها وحدها ، أو تشاركه

فيها على الأقل ، وهو حينما رأى أنه وهب سرعة الجرى نظر إليها على أنها خاصية فيه .

وحيث إنه تفوق على كل الأقران بل وعلى الحيوانات فينبغى ألا يشرك أحد معه فيها ، لتخلص له هذه الصفة وترفع شأنه ، حيث إنه سخرها لتحصيل الأمجاد .

حتى مع رفقائه من الشعراء الصعاليك إذا التقى بهم فى الجبال أو الطرق المنقطعة فإن صوته يخشوشن عند مخاطبتهم حتى يلقى فى قلوبهم الرعب ، لأنه لا يملك إلا ذاته ، وهم مثله مغامرون لا يمتنعون عن خوض الأخطار ويضحون بأنفسهم فى سبيل الذود عن حياتهم أو التفوق على صعلوك مثلهم . لذا رأى أن يوقع فى قلوبهم الرعب بصوته الخشن حتى يهابوه فيمتنعوا عن التصادم معه ، أو على الأقل إذا خاضوا معاركهم معه خاضوها على وهن فينتصر عليهم .

وفى البيت الرابع يفخر بأنه سريع السير خفيف الضغط بقدمه على الأرض حتى لا يتبعه أحد ، فإذا سألوا عنه بعض الجوابين فى الفيافى فإنهم لن يتمكنوا من دلالتهم على مكانه ، فهو بجريه السريع المتصل الخفيف الذى لا يترك علامات على الأرض يصعب على كل قاص أثر أن يهتدى إلى مكانه .

وفى البيت الخامس يفتخر بأنه لا يجمع المال لا لكى يكتنزه وإنما لكى يصنع به المعروف مع كل الناس ، وبذلك تسلم صفاته من الطعن وترتقى به إلى مصاف النبلاء ، وعلى المرء أن يفعل ذلك حتى نهاية

العمر دون توقف .

فهو فى البيت يفخر ببذله ولكن اختلفت طريقة البذل والعطاء فـــهو يعطى بغرض تنقية الصفات وتحسين صورتـــه وتجميلـــها ، لأن الـــذى يعطيه ينشر محامده ، وقد يتغاضى عن مساوئه ، كما قال الشاعر :

إن عين المحب عن كل عيـــب كليلـــة   كما أن عين السخط تبدى المساوى

فهو حصن نفسه بماله وحول كل العيون التى ترقبه إلى عيون محبة لا ترى عيوبه .

فالشاعر كما نرى يفخر بخلال خاصة فيه قد لا توجـــد فـــى غـــيره وأهمها السرعة التى يعتمـــد عليـــها فـــى النجـــاة عندمـــا يحـــاصره الأعداء ، ثم التمكن من سيطرته على نفسه وعواطفه ، لأن المستســـلم لها قد تـــورده مـــوارد التهلكـــة ، وهـــو لا يريـــد أن يســـلم قيادتـــه لامرأة فتكون بذلـــك قـــد ســـلبته حريتـــه التـــى تـــبرأ بســـببها مـــن قبيلته .

كما أن هذه السرعة التى منحها أخضعها للسباق نحو المجد ، فـــهو يحصل المجد بسببها قبل أن يقع عليه غيره لأنه فى الجرى سوف يصل إلى بغيته قبل الآخرين.

ولا يستطيع أن يفخر بذلك فاخر غيره لأنها من خصوصياته الدقيقـــة التى امتاز بها ، ولذلك جاءت على غير قياس .

ومن الفخر أيضا ـــ الذى جاء على غير قياس فى الشعر الجاهلى ما

نجده عند المثقب العبدى[١] :

لا تراني راتعاً في مجلس في لحوم الناس كالسبع الضَرِم
وكلامٍ سيئٍ قد وَقَرتْ أذني عنه وما بي من صَمَم
فتعزيتُ خشاةً أن يرى جاهل أني كما كان زَعَم
ولَبَعضُ الصفح والإعراضِ عن ذى الخَنا أبقى ، وإن كان ظَلَم[٢]

الشاعر فى هذه الأبيات تحلى بأخلاق فاضلة ، وجدها رققت من شمائله وجودت من أخلاقه وصفاته . لذا جعلها مناط فخره ، وموطن زهوه فأراد أن يزهو بها على الناس وهى تستحق منه أن يفاخر بها .

ففى البيت الأول يفخر بأن المجالس التى يغشاها للسمر والترفيه لا يترك نفسه يخوض فى أحاديث فاسدة يتهم فيها غيره بالخنا وبسوء الأخلاق ، وهو يعد مثل هذا الحديث كالسبع الذى يأكل فى اللحم . وهذه الصورة قريبة من الصورة التى قدمها القرآن الكريم لينفر من الذين يخوضون فى أعراض الناس، ويتناولون أعمالهم وفعالهم وأقوالهم بالتجريح ، فقال تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه

---

(١) هو أبو عمرو عائذ بن محصن بن ثعلبة من بنى نكرة بن عبد القيس من بنى أسد ، وهو شاعر مجيد وكان سيدا فى قومه ، عاصر عمرو بن هند ، وهو أقدم من النابغة ، وكانت وفاته نحو عام ٣٥ق . هـ

راجع تاريخ الأدب العربى ، د/ عمر فروخ ١٦٠/١ .

(٢) ديوان شعر المثقب العبدى ص : ٢٢٩ - ٢٣٢ .

ميتا فكرهتموه)[١] .

وشتان ما بين الصورتين ، فالثانية صورة معجزة لا يتطرق إلى مثلها عقل أريب ولا فكر لبيب ، فالشاعر مثلا فى الصورة الأولى جعل السبع هو الذى يأكل لحوم البشر وذلك أمر طبعى ، أما الآية القرآنية فقد نصت على أن الآكل هو شقيق المأكول ، وفى ذلك من الغلظة والجفاء ما يجعل السامعين يكرهونه وينفرون من فعاله ، ويسألون فى تعجب ورفض : ما بال هذا الرجل يخوض فى عرض شقيقه ؟ ولم تكتف الصورة بذلك بل جعلت اللحم المأكول لحم ميتة وجيفة قذرة ، ولك أن تتصور هول هذا التصوير وفظاعته وقدرته على التنفير، فهو صور الذى يغتاب واحدا من الناس كرجل انكب على لحم أخيه بعد أن مات وتعفن وأصبح جيفة قذرة ، ما هذا الجفاء ، وهذه الغلظة ، وهذه القسوة ، التى لم يصل مثلها الحيوان ؟

إنه لأمر يجعل المغتابين يترددون كثيرا ، بل ويعرضون فى سرعة بعيدا عن هذا المشهد المريع ، لذلك نجحت الصورة فى إبعاد المغتابين عن الغيبة . وأظن أن القارئ لبيت المثقب العبدى لا يقف عنده طويلا لأنه يعلم جيدا أن الأسد يأكل اللحوم ، وإن كان معروفا أن الأسد لا يأكل من الفريسة مرتين ، فهو دائما فرائسه طازجة ، مصادة فى لحظة أكلها، وما بقى منها يتركه لزوجه وأشباله . وهذه الصفة التى فى الأسد قد

---

(١) سورة الحجرات بعض آية رقم ١٢.

تحبب الناس فى أن يكونوا مثله وبذلك لا ينجح بيت الشاعر فى جعلهم يعزفون عن الغيبة كما فعلت الآية الكريمة.

وفى البيت الثانى لم يكتف الشاعر بالإنصراف عن القول فى أعراض الناس بل امتنع ــ أيضا ــ عن سماعها ، وهذا شاهد ودليل على أنه يتجنب مجالس الغيبة تماما . وإن ألجأته الظروف إليها فهو لا يشارك فى أحاديثهم بالقول أو السماع ، فكأنه لا يسمع شيئا مع أن أذنيه ليس فيهما صمم .

وفى البيت الثالث يفخر الشاعر بأنه لا يلتفت كثيرا ولا قليلا إلى أقوال الجالسين فى المجالس عندما يتناولونه أو يتناولون غيره بالسب ، فلا يرد بل يصبر محتملا هذا الأذى ، حتى لا يظن به بعض الذين شتموه أنه كما كانوا يقولون ، فسكت إعراضا وترفعا وتعاليا عن هؤلاء الناس الذين يخدشون حياء الناس ، ويقتحمون خصوصياتهم لينبشوا ما فيها من مثالب ثم يعرضوها على الناس .

فالشاعر لم يشأ أن يرد عليهم حتى لا يتهم بأنه على النحو الذى قالوه فيه ، وحتى لا يدخل معهم فى مهاترات وجدال عقيم ، وهو لا يريد أن يضع نفسه موضع التهم فهو مشهور بالعفة ، يعرف ذلك عنه القاصى والدانى ، فصمته ليس صمت عجز ، ولا صمت الذى أعياه الرد المفحم ، بل هو صمت المتجاهل المتأذى .

وفى البيت الرابع يعلل الشاعر لماذا أعرض عن هذا المتهجم عليه وقد أوضحنا جزءا من ذلك فى البيت السابق ، لكنه هنا أورد سببا راقيا

للإعراض ويفتخر بذلك . إذ يزعم بأن صمته للإبقاء على ود هذا الذى أفحش فيه ، ويلفت نظرنا قوله : ولبعض الصفح والإعراض . إنه لفت أنظارنا إلى حقيقة وهى : الذى يصفح ويعرض دائما وأبدا قد يكون جبانا غير قادر على الرد ، ولكن قوله (بعض) أفادت أنه فى بعض المواقف الأخرى لا يصمت ، وهذا يجعله متطابقا مع الحكمة المأثورة التى تقول (العفو عند المقدرة) فالعفو فى حالة العجز لا يصبح عفوا ، إنما هو انهزام مشين ، فإذا قدر وعفا يكون تنازل عن حق ملكه ، بخلاف العاجز فعن أى شئ هو صفح ؟ إن الذى يصفح ويتنازل هو الذى ملك القدرة على الرد والردع ، وهذه قمة أخلاق وصل إليها هذا الشاعر.

وهكذا رأينا فى أبياته فخرا على غير قياس . لأنه يفتخر بصفة أخلاقية رائعة ، وهى الانصراف عن الخوض فى أعراض الناس قولا واستماعا ، فأذنه تتعطل فيها حاسة السمع بإرادته ، وهذا مستحيل ، ولكنها مبالغة مقبولة ليدلل على نفوره الشديد من سماع المتهجمين على مثالب غيرهم .

وأيضا ألحق بنفسه صفة جليلة ورائعة لا يقدر عليها إلا أصحاب الحلم الكبير وهى الصبر على أذى الذين تعرضوا له مخافة أن يتهموه بأنه توجد فيه هذه الصفات لورد عليهم ، وهو فى المقابل ليس صبره عن كل المسيئين بل إنه قد يتصدى لبعضهم من المتبجحين الذين لا يردعهم الصفح ولا يدخل فى قلوبهم الخزى حتى لا يعودوا لمثله هؤلاء وأمثالهم لا يتركهم هكذا ، بل يتصدى لهم ليزجرهم . ومن هنا كان صمته وحلمه صفة محبوبة ، لأنه يصبر على المتطاولين عليه مع قدرته على ردعهم ، فإذا جاء هؤلاء الجاهلون لا

يتركهم يمضون دون تأديب . ومثل هذا الفخر لم يكن شائعا في العصر الجاهلي، ومن ثم كان فخره هذا فخرا غير تقليدى ولا مألوف ، لذا قلنا إنه على غير قياس .

ومن ذلك الفخر أيضا ، ما قاله ذو الأصبح العدواني[١] يفخر بنفسه وخلقه فى قصيدة طويلة نختار من أبياتها :

إنى أبيٌّ أبيٌّ ذو محافظةٍ ... وابنُ أبيٍّ أبيٍّ من أبيين
عفٌّ يؤوس : إذا ما خفتُ من بلدٍ ... هُونا فلستُ بوقافٍ على الهونِ
إنى لعمرك ما بابى بذى غَلَقٍ ... عن الصديق ولا خيرى بممنون
ولا لسانى على الأدنى بمنطلقٍ ... بالفاحشاتِ ولا فتكى بمأمونِ[٢]

الشاعر فى مجال الفخر ألصق بنفسه بعض الصفات الذاتية التى رآها فى نفسه ولم يراها فى أبناء عمومته الذين يخاطبهم فى قصيدته ، فهو يفخر بأنه يرفض الذل والهوان ويحافظ على كرامته وعزته ولا يصبر على الضيم أبدا ، وهو أراد أن يعمق هذه الصفة فيه فجعلها موروثة فى آبائه وأجداده ، فتكرار كلمة (أبى) توحى بتمكن الصفة فيه ، فهو عريق ولا نظن أنه يفخر بآبائه وأجداده على عادة الشعراء الجاهليين ، فهو إن فعل يكون قد اتخذهم وسيلة إلى وجود هذه الصفة فى آبائه وأجداده

---

[١] اسمه حرثان ، وهو من بنى الظرب بن عمرو من بنى يشكر بن عدوان ، وكان وفاته نحو عام ٢٥ ق.هـ وهو من قدماء الشعراء فى الجاهلية ، وهو شاعر وجدانى أكثر شعره فى الفخر والحماسة والحكمة . راجع ترجمته فى شرح المفضليات للتبريزى جـ٢/٥٧٣ ، والشعر والشعراء ٢/٧١٢.

[٢] شرح المفضليات ٢/٥٩٦ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٧١٢.

متنقلة فى الأصلاب حتى وصلت إليه كاملة مهذبة ، وهو بذلك يعــرض بابن عمه الذى لامه كثيرا فى أبياته السابقة على هذا البيت[١].

وابن عمه هذا فرع من فرعى بنى عدوان ، غير الفرع الذى ينتسب إليه ذو الأصبع ، لذلك أمكن أن نصدقه فى عمق هذه الصفة المتوارثــة فهى صفة تشمل فرعه فقط دون الفرع الآخر الذى ينتسب إليه ابن عمه الذى يتحدث عنه فى القصيدة ويلومه وبذا تكون عراقة الصفة لها جذور عميقة فى فرعه منبتة من فرع ابن عمه .

وفى البيت الثانى يفخر بصفة حميدة أخرى وهى العفاف ، أى الترفع عن الدنايا وممارسة الرذائل ، فإذا نصح ووعظ ولم يلتفت إليــه أحـد ووصل إلى حالة اليأس ، فإنه يترك هذا المكان وينأى بعيدا عنهم حتى لا يعيش على الهون والهوان.

وفى البيت الثالث يقسم بأن بابه غير موصد أمام الأصدقاء ولا ذوى الحاجات، ويقول إننى مستعد لاستقبالهم فى أى وقت لأذلل لهم الصعـاب التى انزلقوا فيها من مال أو خوف أو رأى أو نصيحة يحتاجون إليــها ، وهو إذا منحهم المشورة والنصيحة لا يعيرهم بذلك ولا يعود ليلوم نفسه لأن نفسه قد فعلت ما يجب أن يفعله الرشيد ذو الرأى الصائب السديد .

وفى البيت الرابع يفتخر بأنه عف اللسان لا يطلقه بالفحشاء علـــى الأقربين ، وكذلك فهو صاحب بأس وقوة يستعملها عند اللزوم حتـــى لا

---

[١] راجع الأبيات فى المصدر نفسه .

يطمع فيه الطامعون.

ولا أدرى لماذا صان لسانه عن الأقرباء فقط ، وكنا نود أن تكون هذه صفة سائدة ومتسيدة عليه فتمنعه من سباب الناس جميعا حتى لو كانوا من الأبعدين ، وتلك خلة أعظم من التى أثبتها على نفسه .

وهكذا وجدناه يفخر بصفات أخلاقية بعيدة عن المألوف فى مفاخر العرب . ومع أننا أثبتنا هذه القصيدة لذلك الشاعر الجاهلى لورودها فى كتب التراث العربى القديم منسوبة إليه إلا أننا نشكك فيها ونظنها منحولة عليه لما يأتى :

أولا : سهولة الأسلوب الذى صيغت به ، فمفرداتها شائعة واضحة لا غرابة فيها مما جعلنا نشك فى نسبتها إلى ذى الأصبع .

ثانيا : أن الأخلاق الحميدة التى ضمنها الشاعر هذه القصيدة تكاد تكون نادرة ولا توجد إلا فى وصايا الإسلام عندما أراد أن يصنع المسلم العف التقى البعيد عن الشبهات . وهذا ما لا يستطيع أن يزعمه شاعر فى الجاهلية .

ثالثا : تطابقت بعض مقولاته فى القصيدة مع آيات قرآنية : منها قوله : فلست بوقاف على الهون . فمثلهاقوله تعالى : (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)[١] . عندما احتج بعض الكفار عند الحساب يوم القيامة بأنهم كانوا ضعفاء لا يستطيعون مقاومة البغى والظلم فقيل لهم كان من

---

[١] سورة النساء بعض آية رقم ٩٧.

الواجب أن ترحلوا إلى مكان آخر تجدون فيه الحرية . ولا يمكن القول بأن الشاعر وصل إلى إعجاز هذه الآية .

وأيضا قوله : ولا غيرى بممنون . فهى تسير فى نفس النسق مع خلاف كبير وارتقاء عظيم فى أسلوب القرآن الكريم الذى قال : (ولا تمنن تستكثر)[١].

رابعا : تضمنت القصيدة بعض الكلمات التى لم تكن شائعة عند الجاهلين كقوله:

لولا أواصر قربى لست تحفظها ورهبة الله فى مولى يعادينى[٢]

فالشاعر يخشى الله ويخافه ، ولا يخاف المرء ربه إلا إذا كان مؤمنا بالبعث، لأن حساب الله وعقابه لا يكون إلا يوم الدين عند الحساب لدى رب العالمين . وغيره ممن ذكروا اسم الله فى شعرهم ذكروه اسما مجردا لم يعلن واحد منهم أنه يخاف الله ، وإنما فعلوا ذلك انطلاقا من قولهم حينما هوجموا فى عبادتهم للأصنام قالوا إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، دون تعرض لخشية أو رهبة أو ما شابه ذلك ، فالذى يتعرض لرهبة الله والخوف منه إنسان مؤمن بالبعث وبيوم الحساب الذى توقع فيه العقوبات على المخطئين.والقرآن الكريم أوصى بصلة الرحم ، وكذلك الأحاديث النبوية ، ويتعرض القاطع للرحم للعقوبة

---

(١) سورة المدثر آية رقم ٦ .

(٢) شرح المفضليات ٥٩٦/٢.

الشديدة ، وهو لا يفهم ذلك غير أن ذو الأصبع فطن إلى ذلك فمن أين فطن ؟

وكذلك قوله :

إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغنك عنى فسوف يغنينى[١]

القارئ لهذا البيت لو حجبنا عنه اسم الشاعر لنسبه إلى عصر إسلامى فلا يمكن أن يقول ذلك غير مسلم .

ومن أجل ذلك تشككنا فى صحة نسبة هذه القصيدة للشاعر ، ولكن ما الذى حدا بنا إلى إثباتها فى هذا المقام ما دمنا شاكين فى أنها ليست من العصر الجاهلى؟ وللإجابة على ذلك نقول :

أولا : إننا نقلنا القصيدة على أنها من الشعر الجاهلى كما نسبها الرواة وكما جاءت فى كتب التراث القديم كالمفضليات والأصمعيات ، وكما أشار إليها مؤلفوا كتب التراث[٢] وكلهم نسبوا القصيدة للشاعر ، ولم نشأ أن نغير فى مقولاتهم لأننا بصدد رصد صفات غير مألوفة عند الفخر ، وكنا متحمسين للشعر الجاهلى لأنه الأساس والأصل ، والذى ثبت التقاليد التى صار عليها الشعراء فى العصور التى تلت ذلك العصر .

ثانيا : الرأى الحر والنهج المستقل الذى يجب أن يتحلى به الباحث دفعنا بعد رصدها على أنها شعر جاهلى إلى التشكيك والشك فى هذه الأبيات

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) راجع : تاريخ الأدب العربى ، د/ عمر فروخ ١٦٦/١.

لما رأيناه فيها من سهولة فى الألفاظ واقتباس من معانى القرآن الكريم ، ومع ذلك لا نكاد نجزم بانتحالها ، لذا أثبتناها •

أما أوس بن حجر[1] ، فيقول فى مجال الفخر بنفسه :

ولا أعْتُبُ ابن العم إن كان ظالماً ... وأغفر منه الجهلَ إن كان أجهلا
وإن قال لى : ماذا ترى ؟ يستشيرنى ... يَجِدْنى ابنُ عمى مخلطَ الأمر مِزْيلا
أقيم بدار الحزم ما دام حزمُها ... وأحرى إذا حالت بأن أتحولا
فإنى رأيتُ الناسَ إلا أقلَّهُمْ ... خفافَ العهودِ يُكثرون التنقُلا
وهم لمُقِلِّ المالِ أولادُ علةٍ ... وإن كان مَحْضاً فى العُمومةِ مُخْوِلا[2]

الشاعر يفتخر بأنه يبقى على صلة الرحم حتى إن أساءه ابن عمه ، فإنه يبقى له المودة والحب ، فإذا رأيت من ابن عمى جهلا يدفعه إلى الإساءة إلى فإننى لا ألتفت إلى جهله هذا حتى أبقى على وصاله . فإذا فعل ذلك فإننى لا أعاتبه ، لا استخفافا به ، ولكن مخافة أن ينزلق العتاب بيننا إلى المحظور فيسئ فهمى ، ويحدث التصادم بينى وبينه وتزداد الفجوة بيننا ، ويغلظ الجفاء ، ويستعصى بعد ذلك علىَّ الإصلاح ، فرأيت حفاظا على العلاقات الطيبة التى يجب أن تسود ذوى الرحم أنه إن عابنى

---

(١) أوس بن حجر بن عتاب من بنى نمير بن تميم ، وقد تزوج أم زهير بن أبى سلمى ، وعاش أوس دهرا طويلا ثم مات قبيل ظهور الإسلام ، وهو من فحول الجاهلية ، وكان زهير روايــة له.

راجع : الشعر والشعراء ٢٠٨/١ ، تاريخ الأدب العربى ، د/ عمر فروخ /١٧٠.

(٢) الشعر والشعراء ٢١٤/١ ، تاريخ الأدب العربى د/ عمر فروخ ١٧٢/١.

أعف عنه ، وإن بدت فى أخلاقه الغلظة والجفوة فإنى أتقرب منه لأحقق الترابط بين أفراد القبيلة .

وفى البيت الثانى يفتخر بأن صفحه عن ابن عمه أَهَلَّه لأن يكون موضع سره ومناط استشارته ، ويقول إنى أقبل عليه أمحص له الرأى الصحيح إذا استشارنى ، وأن كلامى من بدايته إلى وسطه إلى نهايته كله كلام فى صميم وصلب الموضوع الذى جاء يستشيرنى فيه لا أحيد عنه ، ولا أقف أعنفه على هفواته ، وإنما أجعل هم تفكيرى منصبا على النصيحة التى تخرجه من مأزقه وورطته . بهذا كله اكتسبت عنده وفى القبيلة مكان الحصيف الألوف العفيف على الخنا والرذائل ، والمتمسك برباط المودة مع أبناء عمومته .

وفى البيت الثالث يعلن أنه لا يجتمع مع قبيلته فى مجلس إلا إذا كان صاحب رأى نافذ فيهم ومقبول عندهم ، فإذا أعرضوا عن رأيه وضربوا به عرض الحائط ففى هذه الحالة يلجأ إلى الانصراف من مجلسهم والبعد عنهم . وليس هذا استبدادا بالرأى كما يظن البعض ، لأنه بما قدمه من أخلاق عالية وفاضلة من التغاضى عن هفوات أبناء الأعمام ، والصفح والتسامح ، فهمنا أنه المتأنى الحليم الذى لا يخرجه الغضب عن وقاره وأنه دائب التفكير يبحث عن الرأى السديد ، وليس بالمتهور المندفع ، وإنما يقلب أوجه الرأى حتى يستقر على الصواب فيه ، فرجل هكذا نادرا ما يخطئ ، ولن تكون نيته التغرير بقومه ، وبهذه الصورة يجعلنا نثق فيه . فإذا أهمل جلساؤه رأيه واستخفوا به كان لزاما عليه أن يتركهم ، لأنهم أهدروا رأيه ولم ينتفعوا به ، فلا فائدة من بقائه معهم ، لذا قلنا

إنه ليس مغرورا ولا مستبدا برأيه فانفلت من مجلسهم . وهـذه صفـة محمودة بخلاف المغرور المستبد برأيه فهو ليس كذلك .

وفى البيت الرابع يقول إنه اختبر الناس وعجم عودهـم فـأدرك أن الكثرة الكاثرة من الناس خفاف العهود ، أى لا يحافظون على عـهد ولا ميثاق ، فسريعا ما ينقضون عهودهم ، ويرتدون عن كلمة الشرف التـى قطعوها على أنفسهم وارتبطوا بها مع غيرهم فـهؤلاء قـوم لا يؤمـن جانبهم ، وينبغى أن نعاملهم بحذر وريبة حتى ننجـو مـن شـرورهم المستكنة والتى لا يفصحون عنها إلا عنـد المناسـبات ، وهـو بـهذا الأسلوب يفخر بنفسه ، إذ أنه من القلة التى اتصفت بالوفاء والتمسـك بالعهود والتى جاءت صفاتهم على نقيض الكثرة ، وإننا نزعم ذلـك لأن الشاعر قسم البشر إلى قسمين غير متكافئين فى العدد ، فالكثرة متمردة على معانى الشرف ، والقلة متمسكون ، وبالضرورة لابد أن يكون فـى أحد الفريقين ، وبما أن الفريق الأول الكثير صاحب صفـة مرزولـة لا يرضاها الشاعر لنفسه فلم يبق إلا القلة الممدوحة فى أخلاقها وهو منهم فليس من المعقول أن ينسب نفسه إلى قوم ذمهم ، وعليه فلا تكـون مندوحة من إلحاق نفسه بالفضلاء القلة الذين يرتبطون برفقائهم من باب الإخلاص فى المودات ، أما أولئك فلا تعنيهم العلاقات الإنسانية ، ولذلـك نراهم لا يتقربون إلا ريثما يغادرون وينفصلون ويتنقلون بيـن الرجـال يظهرون المودة عند طلب مأربهم ، فإذا نالوه انتقلوا إلى غيرهم ، وهذا ما لا يمكن أن يكونه الشاعر .

وفى البيت الخامس يواصل الشاعر انتقاد أولئك الذين لا يخلصون فى

مودتهم ، فبعد أن قال فى البيت السابق أنهم ينفصلون عـن أصحابـهم سراعاً . هنا زاد الأمر وضوحاً فهم لا يقتربون من الشخص الذى قـل مناله بل تظهر بينهم وبينه المشاكسات والمؤامرات والأحقـاد بصفـة مستمرة ، كأنهم من أولاد الضرائر لأنهم لا يجدون لديه فائدة ينالونـها حيث إنهم فقدوا المال ولم يعودوا صالحين للارتباط بهم فليس وراءهـم ما يفيد . وهذه المعادلة والصفة ليست مقصورة على الأخساء الذيـن لا أصل لهم ، بل توجد هذه الصفة فى الأصلاء الذين يرتبطون بأصل نبيـل من ناحية الأب والأم ، فهو ممحصون فى عراقة النسب ، ومع ذلك لـم يحجبهم نسبهم هذا عن الالتصاق بالصفات الخسيسة .

وهكذا ترنم الشاعر بصفات ذاتية لا يحـرص عليـها إلا الإنسـان المجرب الذى خاض أهوال الحياة ، وتعرض لأخطارها ومارس التعـامل مع بنى البشر فاقتنص من صفاتهم ما يجب أن يتحلى به العقلاء ، وأفرز بعيداً عن هذا المجال بعض الصفات الذميمة التى وجدها فى بعض الخلق. فهذه مفاخرة نادرة فى الشعر الجاهلى لذا قلنا إن مثل هذه النماذج من الفخر جاءت على غير قياس معهود أو نمط مألوف .

أما عنترة بن شداد[1] فيفاخر بصفات ترفع من شأنه ومقداره عنـد حبيبته ، وهى صفات نادرة قلما تحلى بها أو افتخر بها الشعراء ، فـهو

---

(1) عنترة بن شداد عربى من جهة الأب فهو من بنى عبس ، أما أمه فجارية حبشـية اسمـها زبيبة ، وهو من شعراء المعلقات وشهر بالغزل والحماسة وتوفى حوالى عام ٨ ق.هـ تـاريخ الأدب العربى، د/ عمر فروخ ١/ ٢٥٠.

سما بأفعاله وجهاده ونضاله ، واستحق التكريم ، وإن شاب أصله كدر ، فنسبته إلى أمه (زبيبة) منعت أباه أولا من أن يلحقه بنسبه ، لكن بعد نضال وبلاء شديد مع قبيلته استطاع أن يؤثر فى قبيلته ومنهم أبوه حتى اضطرهم جميعاً إلى الاعتراف به وإلحاقه بنسبهم .

فهو بصفاته النبيلة دون أن تمده قبيلته بأية صفة استطاع أن يشيد لنفسه صرحاً شامخاً من الأخلاق الحميدة ، والشمائل الطيبة التى لا يجاريه فيها أعظم شباب قبيلته حسباً ونسباً ، وها هو ذا يخاطب محبوبته ، قائلاً :

أثنى علىَّ بما علمتِ فإننى   سمحٌ مُخَالَقَتى إذا لم أُظلم
فإذا ظُلمتُ فإنَّ ظُلمىَ باسِلٌ   مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كطعمِ العلقمِ[1]

فهو يخاطب عبلة التى ارتبط بها بوثاق الحب فعرفت عنه الكثير ، بل عرفت عنه مالا يعرفه غيرها ، ولذلك خاطبها بقوله : أثنى على بما علمت ...الخ.

فهو يقرر أنه رجل سهل لأن الناس حين يشاهدونه فى ميدان الوغى تنخلع قلوبهم لمرآهم ضرباته ، فيتخيلون أنه رجل فظ غليظ القلب ، فأراد أن يعلن عن خلة لا يدركها الناس عنه ، وهى سهولة الطباع وبشاشة الفعال ، وهذه تكون فى المعاملات التى لم يستفزه فيها أحد ، أو التى لا يجابهونه فيها بالمعايرة ، أما القسوة والغلظة والشدة فتكون

---

[1] ديوان عنترة ص : ٢٣ ، دار صادر بيروت

عندما يتعرض للظلم ، والظلم عنده هو نسبته إلى أمه دون أبيه ، وتعاملهم معه على أنه عبد ليس سيداً أو ابن سيد ، وهكذا حمل عنترة صفتين متناقضتين ، ولكنهما يندمجان ليكونا شخصية الفارس النبيلة ، ولذلك قال إنه يقاتل بكل هذه الشراسة ليس طمعاً فى الغنيمة ، ولكن لتحقيق المكاسب المعنوية له ولقومه ، ولذلك كان له موقف لم يجارد أحد فيما نعلم ، وهو الامتناع عن أخذ الغنائم أو الاشتراك فى تقسيمها ، يقول :

يُخبركِ من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأَعِفّ عند المغنمِ[1]
فأرى مغانمَ لو أشاءُ حويتُها فيصُدّنى عنها الحيا وتكرمى[2]

إذن فهو صاحب مبدأ لا يريد أن يغيره ، وصفات عنترة هذه قلما توجد حتى فى السادة وليس فى العبيد ، فهو متاح له كما يقول أن يأخذ من الغنائم ما يشاء ولكنه يمتنع عنها حياء ، ليس حياء من الناس ، وإنما حياء من نفسه التى تواجهه بالحساب عند أخذ المغانم ، تعيره لأنه خرج من أجل المغانم ، وهو لم يكن كذلك ، فمن أجل الموقف الحسابى الذى تحاسبه عليه نفسه خجل من أن يكون متهماً أمام نفسه فعف وامتنع وهذه قمة العفاف .

ثم يفاخر بكرامته وعدم التفريط فيها، ووفور عقله حتى فى حالة السكر فيقول :

---

(١) ديوان عنترة ، ص٢٥.

(٢) ديوان عنترة ، ص٢٠٧.

فإذا شربتُ فإنّنى مستهلكٌ ... مالى ، وَعِرْضى وافرٌ لم يُكلَم
وإذا صحوتُ فما أُقَصِّرُ عن ندىً ... وكما علمتِ شمائِلى وتكرمى[١]

فهو إذا شرب الخمر فإنما يهلك بجوده ماله فقط ، لكنه لا يشين عرضه ، فعرضه وافر لا يمس بعيب ، وكأنه يقول إن سكره يحمله على محامد الأخلاق ويكفه عن المثالب وإذا فارقه السكر لا يقصر عن الجود، وهكذا يفخر بجوده ووفور عقله إذ لم يذهب السكر عقله ولم ينقصه ، ورجل كهذا حق له أن يتيه فخراً وزهواً بخصاله وشيمه وفعاله .

أما السموأل بن عادياء[٢] فبماذا يفاخر إنه يفاخر بالقلة ، وهو فخر على غير قياس من جميع الوجوه ، استمع إليه يقول :

تُعَيِّرُنا أنَّا قَليلٌ عَديدُنا ... فقلتُ لها : إنَّ الكرامَ قليلُ
وما قَلَّ مَنْ كانتْ بقاياهُ مِثلَنا ... شبابٌ تَسَامَى للعُلا وكُهولُ
وما ضَرَّنا أنَّا قليلٌ ، وجارُنا ... عزيزٌ ، وجارُ الأكثرينَ ذَليلُ
لنا جَبَلٌ يحتلُّهُ مَنْ نُجيرُهُ ... منيعٌ يَرُدُّ الطرفَ وهو كليلُ
رَسَا أَصْلُهُ تحتَ الثَّرَى وسَما بهِ ... إلى النجمِ فَرْعٌ لا يُرام طويلُ
وإنا لقومٌ ما نرى القتلَ سُبَّةً ... إذا ما رَأَتْهُ عامرٌ وسَلولُ
يُقَرِّبُ حبُّ الموتِ آجالَنا لَنا ... وتَكْرَهُهُ آجالُهُم فتطُولُ

---

[١] ديوان عنترة ، ص٢٤.

[٢] هو السمؤال بن عادياء الغسانى ملك تيماء وهى مدينة بين الشام والحجاز ، وهو الذى أودعه امرؤ القيس أدرعه وكراعه عند ذهابه إلى ملك الروم ليطلب منه العون والمدد للثأر من قتلة أبيه .

راجع : الشعر والشعراء ١/١٢٤.

وما مـــاتَ مِنّا سَيّدٌ حَتـــفَ أنفِـــهِ   ولا طُـلَّ مِنــّا حَيـْثُ كـانَ قتيــلُ
تسيــلُ على حَدِّ الظُّبــاتِ نُفوسُنَـــا   وليست على غيرِ الظُّباتِ تَسيــلُ[1]

فهذا شاعر آلمه كثيراً أن تعير قبيلته بقلة العدد ، ومن المتعـــارف عليه أن الكثرة عز القبيلة وصيانتها ، ودرعها الواقى من كل مرزئـــة ، ولكن الشاعر فى فنية متقنة جعل هذا العيب محمدة ، بل ومجالاً لفخره ، فالكرام قليل ، وقلة العدد تمنعهم من التجبر والظلم ، لأن جار الأكـثرين ذليل .

ولو ذهبنا نحلل الأبيات تحليلاً فنيا لنستشف كنهها وجمالها لوجدنـــا الشاعر فى البيت الأول يقول : تعيرنا ، والتعيير هـــو ذكـــر المســاوئ والخطايا التى ارتكبها الإنسان مع تأنيبه عليها ، ونكتشف بعـــد تـــلاوة البيت أن التعيير منصب على قلة عدد أفراد القبيلة ، وهذا أمـــر ليـــس بمقدور الإنسان أن يصنعه أو يمنعه، فمنذ البداية أدركنا أن هذا الـــذى اتجه إليه بالتعيير إنما هو ضحل الفكر ، تافه الانتقاد ، والخطاب كعـــادة الشعراء يستحضر فرداً يخاطبه ليسهل عليه إبراز مكنون فؤاده . وهـــى هنا امرأة ، لأن النساء أسرع إلى التعيير من الرجل .

(إن الكرام قليل) الكرم هو البذل والعطاء ، وليـــس بـــالضرورة أن يكون قاصراً على المال ، فقد يكون الكرم بالرحمة ، بالصفح ، بالمودة ، وبغير ذلك من الصفات الحميدة ، وهؤلاء لا شك قليل لأننا لـــم نقصـــر الكرم على المال ، حتى لو قصرناه فإنه يكون قليلاً أيضا .

---

(١) الأمالى لأبى على القالى ، جـــ١ ص٢٦٩ ، ط دار الفكر

وفى البيت الثانى لا يسلم الشاعر بأن قلة العدد فى قبيلته معـــيرة ، لأن فى الباقين من قبيلته شباب فتى ، مفتول السواعد ، جرئ الفــؤاد ، يحقق الرفعة والمجد للقبيلة ، ويدفع عنها كل غائلة تحاول أن تلم بها ، وليس معنى ذلك أنهم شباب مندفعون يخوضون المعارك برعونة وبدون تدبر ، كلا ، لأن هناك سياجاً من الشيوخ والكـــهول تحيطـــهم بـــالرأى الصائب ، وتمنعهم من الفعل الطائش ، فهم لهم من الحنكة والتجربة وما اختزنوه من المعارف والحكمة ما يمكنهم من إمـــداد القبيلـــة بـــالرأى الحصيف والقول الفصل .

وقبيلة هذا شأنها لا تخش قلة العدد لأنها محصنـــة بقـــوة الشـــباب وحنكة الشيوخ وهذان من شأنهما أن يحفظا القبيلة من كل تهور يوردها موارد التهلكة، ومن كل رعونة توقعهم فى خطر .

وقد برع الشاعر وأجاد فى هذه المقابلة بين عنصرى القبيلـــة مـــن الشباب والكهول إذ بهما توفرت للقبيلة الحماية : شباب مفتول الساعدين، وإقدام وجراءة ، والجانب الآخر يكمن فى الكهول الذين يجنبونهم خطل الرأى ، وكبوة الفكرة ، ولن تجد قبيلة عزها ومنعتها فى غير الشـــباب الأقوياء ، والكهول المدربين ، الذين مارسوا الحياة حلوهـــا ومرهـــا ، وبهذا أصبحت الكثرة كغثاء السيل لا قيمة لها . والأمثلة على ذلك مـــن واقعنا الحاضر الذى نعيشه كثيرة وملموسة .

وفى البيت الثالث : وما ضرنا أنا قليل ...إلخ ، يقرر الشاعر أن القلة فى العدد لا تضر ، لأن أصحابها يتصرفون فى حـــذر ، ولا ينـــاصبون غيرهم العداء بدون داع ، ولا يرتكبون حماقة تـــودى بـــهم ، أو تـــهز

كبرياءهم . لذلك يحرصون على العيش فى أمان ، وكل الذين يجاورونهم لا يتعرضون لإيذائهم فيعيشون أعزة كرماء ، أما الأكثرون فإن الكثرة تدفعهم إلى البطر ، والبطر يجرهم إلى الرعونة والتهور والغرور الذى يدفعهم إلى فرض السيطرة على من يجاورهم ، وعلى ذلك فجارهم ذليل أبداً .

انظر إلى هذا الصراع الدرامى الموجود داخل هذا البيت : قلة محبوبة لأن من يجاورهم يعيش فى مأمن وطمأنينة ، وكثرة بغيضة لا يرغب فى جوارها أحد ، لأنها تجلب عليه الذل والهوان ، وهكذا تجد هذا الصراع المستمر فى داخل البيت ، والذى حقق الشاعر من ورائه الفخر بما لا يفخر به غيره ، وهو قلة العدد ، فبعد أن حصنه بالشباب والشيوخ الذين ضمنوا للقبيلة الأمن والمنعة وإقبال الناس عليهم رسخ هذه الخاصية فجعلها مستمدة من آبائه وأجداده وممتدة فى الأجيال التالية ، ماضية فى مستقبلها ، حريصة على ما ورثته من عز وتفوق .

وفى البيت الرابع : لنا جبل ...إلخ يشير الشاعر إلى أنهم يتحصنون فى جبل متسام فى الارتفاع يأوون إليه هم ومن يستجير بهم . وليس ذلك جبناً أو فراراً ، وإنما هو يؤمئ بالجبل إلى القوة والحصانة والحماية التى يمنحونها على الرغم من قلتهم لمن يجيرونه من الفارين من خطر يتربص بهم ، فهذا الجبل منيع بهم بقدرتهم وقوتهم .

لذلك أرى أن الشاعر لا يقصد الحقيقة فى قوله هذا (لنا جبل) فالجبل الحقيقى مباح لمن له الكثرة والقلة حتى للصوص ، وإنما يقصد من وراء ذلك قوتهم القادرة على حماية من يلوذ بهم ، أو يحتمى فيهم من

الذين يجيرونهم.

والإجارة عادة متأصلة فى المجتمع الجاهلى ، وكل مضطهد يستطيع أن يطلب الحماية من رجل مرموق فى قبيلة تقف وراءه وتحميه فلا يستطيع أن يناله من يطلبه ، وليس بشرط أن تكون قبيلته كثيرة العدد ، وإنما الشرط الأساسى أن تكون مرهوبة الجانب كقبيلة السموأل قليلة ، ولكنها قادرة على الحماية . وهذا قمة من قمم الفخر .

(يرد الطرف وهو كليل) إن الذى ينظر إلى شموخ هذا الجبل المتسامى لا يستطيع أن يطيل النظر إلى كنته فيرجع البصر حسيراً وهو كليل ، لكن المقصود ليس الجبل كما قلنا على الحقيقة ، ولكن شموخ هذه القبيلة على يد شبابها وكهولها الذين سموا بها إلى النجم . ولك أن تتخيل بعد هذا السمو وارتفاعه الذى لا يصل إلى شأوه أحد مهما بذل من محاولة .

وفى البيت الخامس : رسا أصله تحت الثرى ... إلخ . رمز آخر أو كناية عن الأصالة والقوة التى توارثوها فمنحتهم الثقة والاطمئنان ، وحافظوا على هذا الإرث ، ونما فيهم حتى أوصلهم إلى النجم ، أى أنه ذاع فى الملأ أنهم مع قلتهم العددية يملكون القوة التى تحوط من يلوذ بهم بالحماية والمنعة .

وفى البيت السادس : (وإنا لقوم ما نرى القتل سبة ...) يقول الشاعر نحن مع قلة عددنا لا نجذع من الموت ولا نراد سبة تستحق التعيير ، فالقتل فينا مألوف معتاد لأننا نكون قد قتلنا أضعاف ما قتل منا

على الرغم من قلتنا .

وفى البيت السابع : (يقرب حب الموت آجالنا ...) يقول الشاعر نحن نحب الموت ونسعى إليه ، ولذلك تقصر آجالنا ويموت أكثرنا وهو شباب ، وهذا هو سر قلة العدد ، أما غيرنا فإنهم يكرهون الموت فتطول أعمارهم ، ومن هذا المنطق كثر عددهم ، وهو يرميهم هنا بالجبن ، ومن ثم أصبحت كثرة العدد معيرة ، لأن سبب الكثرة هو الجبن .

ولا شك أن هذه مفارقة عجيبة علل بها الشاعر قلة العدد فى قبيلته ، وكثرة العدد فى القبائل الأخرى ، وبذلك أصبحت الكثرة ليست مناطاً للفخر ، فكثرة الجبناء تساوى صفراً .

وفى البيت الثامن : (وما مات منا سيد ...) يقول الشاعر الموت الذى استأصل السادة عندنا الذين تجملوا بصفات فى الشجاعة والبذل والكرم ماتوا فى المعارك دفاعاً عن العرض والشرف والكرامة ، ولم يمت واحد منهم فى فراشه أبداً ، وهذه قمة الشجاعة ، وكما قال خالد بن الوليد ــ فيما بعد ــ وهو يحتضر ما معناه : ليس فى جسدى مكان خلا من طعنة رمح أو ضربة سيف وهأنذا أموت على فراشى كما تموت الشاة ، فلا نامت أعين الجنباء .

وقوله : (ولا طل منا حيث كان قتيل) لولا هذه الجملة لتحولت قتلاهم إلى صرعى مهزومين ، ولكن هذه القبيلة مع قلة عددها لا تترك ثأراً دون أن تناله، ومن ثم لم يجد الشاعر فى قتلاهم دماً مطلولاً أبداً ، فكل قتيل منهم يقابله قتيل أو قتلى من خصومهم .

وفى البيت التاسع والأخير : (تسيل على حد الظبات نفوسنا) يقــول إنهم يموتون فى ميدان الوغى والقتال بحد السيوف ، وكلمة تسيل تفيــد وتوحى بغزارة الدماء لكثرة القتل وعدم هروبهم من ميادين القتال .

وبعد ــ فهذه المعايرة وإن كانت قد آلمت الشاعر كثيراً إلا أنها لــم تخرجه عن صوابه ، فجاء فكره منظماً محكمــاً فيمــا يشــبه القضايــا المنطقية ، فهو مالك لزمام نفسه يصدر عن روية وتدبر ، لذا وجدنـــاه يسوق الأدلة الدامغة التى تبطل حجية الذين يفخرون بالكثرة العدديـــة ، فالكرام قليل عددهم ، فهم من الندرة بحيث لا يجود الزمان بهم كثيراً .

وهكذا قدم لنا الشاعر لوناً جديداً من ألوان الفخر لم يتعوده الفاخرون وهو فخر بما جعله غيره موطناً من مواطن الذم والتعيير وهـــو قلـــة العدد ، ولكن الشاعر استطاع أن يحول هذه المنقصة إلى مفخـــرة بمـــا أثبته فى قصيدته و أشرنا إليه .

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت فى اختيار الأبيات التى تساند فكرتى وتؤيد نظرتى التى اتجهت بها إلى نوع خاص من الفخر لم يتخذ صفـــة نمطية ، ولم يشع بين مفاخر الجاهلين ، فهم قد أكـــثروا مـــن الفخـــر بالأحساب والأنساب وبالسيادة والرياسة والشـــجاعة وقـــرى الضيـــف وحماية المستجير والتضحية بالغالى والسمين من أجل إثبـــات الكـــرم ، لأنهم فى بيئة يحتاج بعضهم إلى بعض، وتنتظر كل قبيل مـــن القبيلـــة الأخرى تقديم المعونات ، لذا راج شعر الفخر بهذه الصفات التى يحرص الشاعر على أن يحيط بها قبيلته ونفسه ، ولكن الصفات الأخرى التـــى تتبعناها وأثبتناها وأنتزعناها من ثنايا قصائدهم والتى رأينا أنـــها غـــير

مألوفة أو على الأقل أنها خافية شوشر عليها الصوت العالى الذي فخروا فيه بالسجايا أنفة الذكر ، ومن أجل ذلك كان الدارسون يمرون عليها مراً حثيثاً أو متعجلا دون أن يعيروها العناية الكافية أو يقدموا على دراستها وإبرازها والإشادة بها .

وأكاد أزعم أن هذا المنهج الذى نهجته غير مسبوق ، ولا أقطع برأى فى أن الدارسين جميعاً لم يتناولوا هذه الصفات ، فلعل بعضهم قد نوه عليها أو أشار باستحياء إلى بعضها ، ولكن يبقى لى مع ذلك أننى لم أترك الأبيات التى أوردتها دون تحليل وتعليق أو إبداء رأى ، وأعتقد أن هذا لا يتفق فيه اثنان حتى لو تناولا البيت الواحد ، أو اجتمعا على قصيدة واحدة ، لأن التحليل الفنى رؤية من رؤى النقاد النابعة من ذواتهم ولا يشترك واحد مع الآخر فيها .

وآمل أن أكون قد بلغت أربى وحققت ما بدأته لإتمام هذه الفكرة التى راودتنى كثيراً ، وألحت علىّ حتى أخرجتها فى هذا البحث ، وهى أن أقدم فخراً بصفات غير معتادة ولا مألوفة عند كثير من الفاخرين الجاهليين .

ولعل الدارسين يلتفتوا فى شعر الجاهليين إلى نماذج أخرى فى صفات أخرى مثل الشجاعة والكرم والمدح ونحوها حتى نقدم الشعر الجاهلى فى ديباجة جديدة . فما زال فى الشعر الجاهلى كنوز لم يفض ختمها ، وتحتاج إلى دراسة واعية متأنية ، لأنه شعر الجذور التى سمقت فروعه بعد ذلك .

د/ عمر عبد المعبود عبد الرحمن